مقدمة

أ.د/ نادية مصطفى*

مع بداية العقد الثاني من الألفية الثالثة، يدخل عالم "الحوارات" عقده الثاني محملاً بسجل حافل من الآمال والطموحات ومن الإخفاقات والتراجعات. في نفس الوقت، فإن "عقد من الحوارات (2010-2000)" قد حمل الكثير من الدلالات المتصادمة أو المتقابلة أو أحيانًا المتكاملة حول ما يمكن أن يحققه الحوار، سواء كفلسفة أو رؤية أو أداة أو عملية أو هدف في حد ذاته، للإنسانية.

ففي عام 2000، أعلنت الأمم المتحدة أن عام 2001 سيكون عام "حوار الحضارات"، هذا بعد عقد من انتهاء الحرب الباردة، وهو العقد الذي شهد العالم عبر سنواته موجات متتالية ومتزامنة من انفجار الصراعات -ذات الأبعاد الدينية والقومية والمذهبية- انفجارًا دمويًّا. وإذا كان بعض هذه الانفجارات قد سكن -ولو مؤقتًا كسابق عهده تاريخيًّا- إلا أن البعض الآخر مازال مستمرًا ولو في أشكال جديدة.

وما كاد عام 2001 يقرب من الانتهاء، إلا ووقعت هجمات الحادي عشر من سبتمبر. ولقد فجرت بدورها، وعلى نحو يفوق -إن لم يكن امتدادًا لما بعد نهاية الحرب الباردة- موجة من الصراعات الدموية في قلب العالم الإسلامي بصفة خاصة.

ومن المفارقة الواضحة أن العودة المكثفة لاستخدام القوة العسكرية بقيادة أمريكية، سواء تحت مسمى الحرب الاستباقية أو الحرب الدولية ضد الإرهاب، قد تزامن معها حركة دؤوبة ومتنامية الكثافة والاتساع من حيث الاهتمام بملتقيات الحوارات على كافة مستوياتها (الرسمية، والمدنية، والشعبية) وعلى كافة أنواعها (الكلية منها والتي تركز على مجالات نوعية محددة مثل: المرأة، الشباب، الإعلاميين، الدعاة، الأكاديميا، أو على قضايا محددة: العنف، الإرهاب، ثقافة السلام والتسامح، قبول الآخر،...إلخ). ويمكن القول أنه يصعب على جهود جماعية محددة أن تقوم على رصد هذه الظاهرة التي انفرد بها العقد الأول من الألفية الثالثة، نفس العقد الذي سُميت إجمالاً حروبه المنتشرة بـ"الحرب العالمية الثالثة". فلقد كان إعلان بوش الحرب على الإرهاب عام 2001، بمثابة أولى حروب القرن الواحد والعشرين، ولكنها ولدت أو تولَّد عنها أو تحدث في سلسلة منتظمة من الحروب في قلب

* مدير مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة.

العالم الإسلامي (تذكرنا بسلسلة الحروب بالوكالة التي شهدتها أرجاء أخرى من العالم عبر العقدين التاليين على نهاية الحرب العالمية الثانية).

ولقد اجتهد مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، برنامج حوار الحضارات سابقًا، عبر ثمان سنوات، أولاً في تقييم حالة الحوارات، على المستويات الوطنية والإقليمية والعالمية[1]، كما امتد اهتمام المركز من ناحية أخرى إلى خريطة قضايا الحوارات وإشكالاتها وخاصةً إشكالية العلاقة بين الديني–الثقافي–الحضاري وبين السياسي، وهي الإشكالية التي تجلت في عدد من القضايا مثل المرأة، والتنمية، واللغة والهوية، وخصائص الثقافة العربية الإسلامية، والعدوان والمقاومة الحضارية وغيرها.[2] ومن ناحية ثالثة، جذبت سياسات القوى الكبرى تجاه ما يسمى الدبلوماسية العامة انتباه المركز، باعتبار أن هذه الدبلوماسية العامة توظِّف الحوار كأداة وكعملية على أكثر من مستوى.[3]

---

[1] د.نادية مصطفى ود.علا أبو زيد (محررتان)، "من خبرات حوار الحضارات: قراءة في نماذج على الصعيد العالمي والإقليمي والمصري"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، 2003).

– د.نادية مصطفى ود.علا أبو زيد (محررتان)، "خطابات عربية وغربية في حوار الحضارات"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، 2004).

– د. نادية مصطفى (محررة)، "مسارات وخبرات في حوار الحضارات: رؤى متنوعة في عالم متغير"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، 2004).

[2] د.نادية مصطفى (تنسيق علمي وإشراف)، أ.أسامة مجاهد (مراجعة وتحرير)، "خصائص الثقافة العربية والإسلامية في ظل حوار الثقافات"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، 2005).

– د.نادية مصطفى ود.سيف الدين عبد الفتاح (تنسيق علمي وإشراف)، أ.أمجد جبريل (مراجعة وتحرير)، "اللغة والهوية وحوار الحضارات"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، 2006).

– د.نادية مصطفى ود.سيف الدين عبد الفتاح (تنسيق علمي وإشراف)، أ.أماني غانم وأ.مدحت ماهر (مراجعة وتحرير)، "العدوان، المقاومة الحضارية في حرب لبنان: الدلالات والمآلات"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، 2007).

– د.أماني صالح (محررة)، أ.أسامة مجاهد (مراجع)، "مراجعة في خطابات معاصرة حول المرأة"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، 2007).

– د.رفعت العوضي ود.نادية مصطفى (تنسيق علمي وإشراف)، أ.أسامة مجاهد وآخرون (مراجعة وتحرير)، "الأمة وأزمة الثقافة والتنمية"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، 2007).

[3] د.نادية مصطفى (تنسيق علمي وإشراف)، د.معتز بالله عبد الفتاح (تحرير)، "الدبلوماسية العامة الأمريكية تجاه العالم العربي"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج الدراسات الحضارية وحور الثقافات، 2007).

- د.نادية مصطفى (تنسيق علمي وإشراف)، أ.علياء وجدى (مراجعة وتحرير)، "أوروبا وحوار الثقافات الأورومتوسطية: نحو رؤية عربية للتفعيل"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج الدراسات الحضارية وحور الثقافات، 2007).

بعبارة موجزة، ومن مدخل العلوم السياسية والعلاقات الدولية، ومهما اقتضى الأمر من تعاون مع مجالات معرفية أخرى اهتمت أيضًا بعقد الحوارات، فإن اهتمام المركز انصب على الظاهرة باعتبارها تجليًّا من تجليات المدخل الثقافي لدراسة العلاقات الدولية، من داخل حقل العلوم السياسية. ومن ثم، كان لابد وأن تتجسد –كما سبق القول– إشكالية العلاقة مع السياسي داخليًّا وخارجيًّا، ومن ثم فإن درجة تسييس الحوار وطبيعة هذا التسييس كانت دائمًا في قلب اهتمامات أنشطة المركز.

إلا أنه كان للعملة وجه آخر، فإن عقد الحوارات لم يشهد المقابلة بين حوار الكلمة وحوار السلاح فقط (وفق مقولة المسيرى حين وصف الصراع بأنه يمكن إدارته بحوار الكلمة وحوار العنف)، ولكن شهد أيضًا سلسلة من الأزمات المتكررة، على مستويات وطنية ابتداءً، ولكنها أيضًا ذات امتدادات عبر إقليمية وعالمية، وعلى رأسها بالطبع أزمة الرسوم المسيئة للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأزمة محاضرة بابا الفاتيكان عن الإسلام، وأزمة الفيلم الهولندي. وهذه أزمات على خريطة الحوار بين العالم الإسلامي والغرب، إلا أنها لم تكن أكثر أهمية من أزمات أخرى شهدتها الدائرة الوطنية المصرية بين مواطني مصر من المسلمين والمسيحيين.

ولقد اهتم المركز بتسليط الضوء على هذه الأزمات، وبيان موضعها من خريطة الحوارات: هل هي سبب لفشل الحوار أم هي نتاج فشل الحوارات؟ ناهيك بالطبع عن مصادرها وأسبابها النابعة من السياقات المحيطة نتيجة السياسات الداخلية والخارجية للأطراف المعنية بالحوارات.

بعبارة أخرى، كان اندلاع هذه الأزمات –السابق الإشارة إليها– وغيرها بالطبع من الأزمات المناظرة المتكررة وبلا انقطاع، ذي دلالة بالنسبة لقضية فعالية الحوارات والشروط اللازمة لهذا التفعيل حتى تصبح هذه الحوارات مدخلاً لتسوية المشاكل السياسية سواء كشرط مسبق –كما تفترض الخطابات الغربية– أو نتيجة كما تفترض خطابات عربية وإسلامية.

ولقد نظَّم المركز ندوات مصغرة أو حلقات نقاش حول عدد من الأزمات المتتالية الكبرى –والتي يتضمنها هذا الكتاب– ومنذ مناقشة الأزمة الأولى الداخلية والأزمة الأولى الخارجية التي اهتم بها البرنامج، برزت اتجاهات محذِّرة من تكرار مثل هذه الأزمات داخليًّا

وخارجيًّا مما يستلزم عدم الاقتصار على مناقشتها حين وقوعها أو بعدها في محاولة للتشخيص والتفسير، ولكن يجدر أيضًا الانتباه إلى الوسائل والآليات التي تجتهد لاستباقها أو الحيلولة دون اندلاعها أو على الأقل المشاركة في إدارة تسويتها برشادة على نحو يحقق تصالحًا وطنيًّا أو عالميًّا إنسانيًّا من خلال إبداع جديد.

وبالفعل، وجد المركز نفسه أمام أزمات متكررة عليه الاهتمام بها، مما استلزم التفكير في نشر ما تراكم من تحليل لهذه الأزمات[4]، وبالفعل استغرق إعداد أعمال هذا الكتاب قرابة العامين، منذ عقد آخر حلقة نقاش في إبريل 2008. وحين بدأ دفع الكتاب للمطبعة، تفجرت أزمة الاستفتاء على حظر بناء المآذن في سويسرا مقدمة أبعادًا أخرى إضافية إلى أزمات الدنمارك وهولندا. ومن ثم، فإن الكتاب الراهن يضم أيضًا أعمال أحدث ندوات المركز في هذا الشأن تحت عنوان "المسلمون في أوروبا: قراءة على ضوء المشهد السويسري". ومن ناحية ثانية، فإن مبادرات وطنية وعالمية من أجل ثقافة السلام والتسامح وقبول الآخر والتربية المدنية وتجديد الخطاب وغيرها..، قد حظت باهتمام المركز باعتبارها من القضايا المعرفية والفكرية المتصلة بحالة "الحوارات". ومن ناحية ثالثة، فإن استمرار الأزمات على الصعيد الوطني المصري تستدعي اهتمامًا من نمط آخر. ومن ثم، فإن المركز يقوم منذ ما يزيد على السنوات الثلاث على مشروع رصدي تحليلي تحت عنوان "العيش الواحد: إشكاليات بناء جماعة وطنية في مصر"، إلا أنه لم يقدر له حتى الآن –لأسباب كثيرة– أن يعلن عن نتائجه.

خلاصة القول، إن أعمال الندوات وحلقات النقاش التي يتضمنها هذا الكتاب وإن اقتصرت على بعض أهم الأزمات التي اندلعت خلال "عقد من الحوارات" إلا أنها تقدم نمطين أساسيين من الداخل الوطني المصري ومن الداخل الغربي، والتي كان لها تداعيات على العالم الإسلامي، وبين هذين النمطين تنتظم حالات أخرى من الأزمات الممتدة.

[4] سبق نشر أعمال ندوة تناولت أبعاد أزمة قانون حظر الرموز الدينية في فرنسا في:
د.نادية مصطفى (محررة)، "الهوية الإسلامية في أوروبا: إشكاليات الاندماج –قراءة في المشهد الفرنسي"، (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، برنامج حوار الحضارات، 2005).

ولقد شارك في هذه الندوات نخبة من الأساتذة المصريين بدرجة أساسية من اتجاهات فكرية وسياسية متنوعة على نحو يقدم معه هذا الكتاب خريطة رؤى مصرية حول هذه الأزمات. فهذه الندوات لم تكن حوارية إلا على المستوى الوطني أساسًا، وباستثناء مشاركات محدودة من بعض الزملاء من الدنمارك وهولندا المتواجدين في مصر بحكم وظائفهم وأدوارهم.

ومع ذلك تظل هذه الرؤى عينة ممثلة للرؤى المتبادلة حول أبعاد هذه الأزمات من حيث الأسباب والنتائج والمآلات. ومن ثم، فإن هذا الكتاب يمثل قاعدة ومنطلق يمكن على ضوء دلالاته اختبار النقاش حول أزمات أخرى لم يتضمنها الكتاب سبق واندلعت ومازالت تندلع ولابد وأن تستمر في الاندلاع طالما أن "الصراع بين الثقافات والأديان" مازال يجد جذوره في صراع سياسات القوى القائمة وفي عواقب العولمة بقيادة أمريكية على الإنسانية جمعاء وليس على عالم المسلمين فقط.